الفصل التاسع

الجـــلا

ويسمعون أنفسهم إلم أورما .

يرى بعض الجغرافيين أن الجلا والصوماليين فرعان من الأرومة الحامية ؛ وأن الجلا وصلوا أفريقية بطريق مضيق باب المندب ، قبل وصول الدناكل والصوماليين الذين زحزحوهم من موطنهم الأفريقى الأول حول خليج تاجورة ، فهجروه ، وساروا نحو الجنـــوب الغربى ، حتى اصطدموا بقبائل المازية القوية ، فارتدوا على أعقابهم منعطفين نحو الشمال؛ وساروا فى هذا الاتجاه،حتى وصلوا إلى الحبشة فتوغلوا فى أرضها وهزموا جيوش رءوسها فرادى وجماعات ، ودمروا مئات من قراها ، وهدموا آلافاً من كنائسها ، ونهبوا كنوزها ، وقتـلوا من أهلها خلقاً كثيراً ، ولولا ماشجر بين بطونهم من خلاف لسقطت الحبشة التى كانت قد أنهكتها حروب المسلمين فى القرن السادس عشر ، خائرة تحت أقدامهم .

ولم يلبث الحبشان أن لموا شملهم ، وتظاهروا ، وأخرجوهم من قلب الهضبـة ، فأناخوا فى أقاليم الحبشة الحالية الجنوبية .

ومع ذلك فقد تخلف فى وسط شاوة ، وفى بعض جهات الحبشة الشرقية كثير من بطونهم ، واتخذوها أوطاناً لهم .

ويزعم الجلاّ أنفسهم أنهم آتون من وراء البحار ، ولانعرف على وجه التحقيق ، البحار التى يعنونها ، فقد يكونون من وراء البحر الأحمر ، أى من بلاد العرب ، كما قدمنا ،أو من وراء البحيرات الاستوائية ، وفى ذلك أقوال كثيرة ، وخلاف كبير .

ويرى بعض الثقاة أنهم هاجروا من بلاد العرب على متن البحر ، وساروا بسفنهم حتى رست بهم فيما يعرف الآن بشرقى أفريقية البريطانية (كينيا) [١] .

واستقروا ببعض جهاتها الساحلية ما شاء الله لهم أن يستقروا ثم هاجروا إلى جهة ما غربى البحيرات العظمى . وأقاموا بها إلى أن هجروها إلى الحبشة حيث لا يزالون بها كما ذكرنا فى صدر هذا الكلام [٢] .

ويفصل قبائل الجلا عن قبائل الصومال خط غير مستقيم ممتد بين خليج تاجورة ومصب نهر الجب (جوبا) يسكن الجلا غربيه والصوماليون شرقيه [٣] .

وينقسم الجلا قبائل ، يختلف أفراد كل قبيلة منهم فى بعض الملامح والصفات والعادات ، ولكنهم يتكلمون لغة واحدة تسمى الجلا أو الأرمو . وهى منتشرة فى القرن الشرقى يتكلمها معظم الحبشان . ويهتم السائحون بدراستها لأن من يحسنها منهم يستطيع التفاهم ، كما قدمنا ، مع معظم سكان الحبشة . وهى من اللغات الموسيقية التى يحلو سماعها .

ويرعى شئون بعض القبائل الجلوية هيتش ، أو سلطان ، وشأنه شأن مشايخ القبائل العربية ، لا ينفرد بأمر دون أفراد قبيلته ، إذ الأمر شورى بينهم .

وتنقسم بعض قبائلهم جماعات تسمى جادا . وينقسم رجال كل جادا ، أزواجا . وكل رجل ينخرط فى سلك الجماعة التى كان أسلافه مندمجين فيها . وتمر كل جماعة

---

(١) هذا الرأى يخالف الرأى القائل إنهم قدموا أفريقية عن طريق باب المندب .

(٢) يرى البعض أن الجلا غادروا أوطانهم مختارين ، حداهم إلى ذلك خصب الأرض التى رحلوا إليها . ومما سهل لهم هذا الانتقال غزو الأجرانى القائد الصومالى للحبشة ، إذ ساروا فى إثره ، يحلون فيما يخربه من البلاد الحبشية .

(٣) ذكر الدكتور محمد صبرى فى كتابه : مصر فى أفريقية الشرقية — الخ ص ٢٨ « أن أرض الجلا تمتد فى الشمال الشرقى من بحيرة فكتوريا بين هضبة الحبشة فى الشمال ومملكة الصومال فى الشرق ، وبلاد العروس وبوران فى الجنوب ولعله يقصد بمملكة الصومال مملكة عادل القديمة ويستخلص من كلامه أن العروس وبوران ليسا من الجلا فى حين أنهما من جماعات الجلا .

باختبارات ، مدة كل منها ثمانى سنوات . ورجال الجيل الرابع[1] مسئولون عن حكم القبيلة والتصرف فى شئونها ، ومنهم يختار الأب بوكو أو رب الصولجان .

و يفضل الجلاَّ الشباب الغر القادر ، على الشيخوخة المجربة العاقلة . ومن قصصهم الطريفة التى تبين عن ذلك القصة الآتية :

التقى يوماً ضبع كان يتجول فى غابة بابن آوى ، فقبض عليه ، واقتاده من عنقه . فسأله الرفق به ، و إطلاق سراحه رحمة بصغاره .

فقال له الضبع ، وهو يهدىء من روعه : إنى لم أُرد قتلك و إنما أريد أن تحضر لى ماء أو تهيىء لى مكاناً آوى إليه يعصمنى من الحر ، والقر ، والمطر .

فقال له ابن آوى ، وهو يرتعد خوفاً : « لو كنتُ رجلا لما اجترأت على إذلالى ، وأقدمت على هوانى !

فسأله الضبع : وما الرجل الذى تهددنى ، وتوعدنى به ؟ وما دله وشكله ؟

فقال له ابن آوى : إذا أردت أن تراه فاصحبنى أدلك عليه .

فانطلقا . و بينما هما سائران فى إحدى مسالك الغابة ، لقيا رجلا مُسناً .

فقال الضبع لابن آوى : « أهذا الرجل » ؟

فقال ابن آوى : « لا ، ليس ما ترى رجلاً ، و إنما كان رجلاً » .

وانطلقا . فلقيا صبياً فى الغابة يمرح !

فسأله الضبع ! أهذا الرجل الذى تريدنى أن ألقاه ؟

فقال ابن آوى : « لا ! ليس هـذا رجلاً الآن . ولكنه سوف يصبح رجلاً يوماً ما » .

وانطلقا . فلقيا شاباً ، فارع الطول ، مفتول السواعد ، وفى يده قذافة .

---

(١) يقصد بالجيـل الرابع أى الرجال الذين نجحوا فى الاختبار الرابع ، ومنهم معظم فرسان الجيش (السوارى) .

فقال له الضبع : « أهذا الرجل » ؟

قال ابن آوى : أجل . هذا هو الرجل حقاً . فأرنى شجاعتك واقبض عليه .

فهجم الضبع على الشاب الشاكى السلاح ، فأطلق عليه مقذوفاً نارياً ، أصاب أذنه .

ففر الضبع واضعاً يده على موضع الجرح من أذنه ، مصدقاً لقول ابن آوى !

والجلوى بوجه عام أرقى من الصومالى خلقاً ، وأرجح عقلا ، وأميل إلى الحرب . وسلاحه المختار الحراب والرماح ذات الأسنة المتفرعة ، التى يسميها بعض أهل الصعيد « القرقيط » .

والجلاَّ الشماليون أى الذين يسكنون الحبشة الأصلية فرسان مغاوير أعجب المبشر كريف « بطلعتهم الحربية وطول قاماتهم » . ولم يتمكن الإمبراطور منليك الثانى ، أعظم نجاشية الحبشة من إخضاعهم ، إلاَّ بعد أن أمده الفرنسيون بالذخائر ، ومعدات الحرب الحديثة من مدافع وقذافات .

ومعظم الجلا الشماليين مسلمون يرسلون بعض أبنائهم إلى الجامعة الأزهرية لتلقى العلوم الدينية ، ويرجعون إلى أوطانهم بعد إتمام دروسهم ليفقهوا قومهم بأمور دينهم .

أما الجلاَّ الجنوبيون أى الذين يسكنون فى أطراف الحبشة الجنوبية ، والجنوبية الغربية ، فإنهم دون الشماليين فى الرقى العقلى ، والخلقى . ولا يزال بعضهم متمسكين بدينهم القديم ، الذى ألفوا عليه أجدادهم ، يؤمنون بالله عَلىٍّ مسيطر يسمونه واق ، ويشركون معه ربين ، ذكراً وأنثى ، وهما دونه فى الحول والقوة والسلطان . ويقدسون القمر ، وبعض الحيوانات مثل التمساح ، والزواحف كالحية ، والطير كالبومة ، والشجر كالباوباب .

ومن عادات بعض قبائلهم أن يصبوا اللبن كل شهر على جذور شجرة الباوباب ، ويضحون لها بشاة سوداء كل سنة . كما يعتقدون فى زجر الطير . ويدعى

بعضهم عـلم الغيب بفحص معـدات البقر وأمعائهـا .

وجلهم حفاة ، يتلفعون بجـلود الضأن . و يعيشون على الفطرة فى أكواخ من قصب ، يحيط بها زرائب يحشرون فيها أنعامهم حشراً .

هيئات الجالا

ويختلف الجلا الشماليون عن الحبشان الذين يجاورنهم فى جل صفاتهم وأخلاقهم

وعاداتهم ، وطرق معيشتهم ، فليس فى أشرافهم النعرة الكاذبة والصلف والزهو ، تلك الصفات التى نعرفها من رؤوس الحبشان وكبرائهم . وليس فى دهمائهم خلائق الخنـوع ، والذلة ، ونسيان الذات ، التى نلمسها فى صغـار الحبشان . وليس عندهم التعصب الدينى البغيض الذى نجده فى الحبشان جميعاً .

ولقد شبههم رحالة نجليزى ، جاب بلادهم ، ونزل بين ظهرانيهم ، شبههم بأهل الريف فى بريطانيـا العظمى نفسها « فسراتهم مثـل أكفائهم البريطانيين ، طيبو النحيزة ، ميامين النقيبة ، كرام النفوس . إذا لقيتهم هشوا لك و بشوا . و إذا جالستهم أنسوا إليك . و إذا استنجدتهم خفوا لنجدتك . أو استعنتهم ، طاروا سراعاً لمعونتك . ليس لهم مطمع سياسى خاص . ويحرصون الحرص كله على تحاشى الجدل السياسى ، وتجنب الحوار الحزبى .

أما مواليهم أو سكان الأكواخ أو « التُّكل » المبعثرة فى السهول والأودية فأكفاء عمالنا الزراعيين ، نشيطون مجدون . حَيٌّ فعال . لا يكلمونك إلا إذا بدأتهم بالسلام أو بالكلام .

و إن نظرة عجلى إلى داخل بيوت ذوى اليسار منهم ، تريك أنهم يقدرون الراحة المنزلية ، و يعملون لها ، ففراشهم مريح وثير ، وطعامهم جيد شهى . والحدائق التى لا يكاد يخلو منها بيت من بيوتهم ، تحوى من الزهر البهيج ، والرياحين العبقة ماينم عن ذوق مهذب ، و إحساس دقيق بالجمال .

ومعظم أرضهم خصيبة ذات زرع وكلأ ملتف ، تجرى من تحتها الأنهار ، فتقسمها أكتافاً ، أو ربوات مستطيلة وأودية وسهولا .

وقد طاف بعض الرحالين الانجليز بأرض جلا العروس فوصفها بقوله : إن مناظرها الطبيعية ساحرة فاتنة . . . . . وجبالها الشامخة تكسوها حلة خضراء ، تشبه منحدراتها العليا مورز (Moors) يوركشير . أما المنحدرات السفلى ، فتشقها

نهيرات ، عميقة المجرى ، سريعة الجريان ، يعترضها شلالات ، رائعة أشد الروعة وتحف بها الغابات ، عن اليمين وعن الشمال .

ويبنى سراة الجلا بيوتهم على رءوس التلال ، ويبنى مواليهم ، أى العمال الزراعيون والرعاة أكواخهم مبعثرة فى السهول ، ومجتمعة قرى على ربوات من الأرض فى الأودية التى تغمرها مياه الأنهار التى فيها ، فى موسم الأمطار .

ولقد وصف أحد الرحالة هذه القرى قال : « فى وادى الأواش ، أحد روافد النيل الأزرق ، وهو واد نهاية فى الخصب ، يبنى فلاحو الجلا قراهم على ربوات ، تصبح جزائر فى موسم الأمطار ، ويصبح السير فيها متعذراً أو قريباً من المستحيل . ويذكرنا هذا المنظر بمنظر مصر فى زمن الفيضان ، قبل عصر الرى المستديم ، ومنظر الحياض فى مصر العليا حين يملأ حياضها ماء الفيضان ، ذلك المنظر الرائع ، الذى وصفه الفاتح عمرو بن العاص فأبدع وصفه ، إذ يقول : « مصر ، يا أمير المؤمنين ، تربة غبراء ، وشجرة خضراء . . . . . يجرى وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان . . . . . حتى إذا عج عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلا يمكن الشخوص من القرى ، بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب . »

وفى أرض الجلا ولايات أو ممالك صغيرة إسلامية مستقلة ، إستقلالا ، يكاد يكون تاما يحكمها ملوك مسلمون ، أشهرها شيا (چمة) جنوبى غربى أديس أبابا ، وهى من أخصب بقاع الحبشة وأغناها . ويرى بعض من طاف ببعض انحائها أنه « لاينقصها إلا قليل من العناية ، لتصبح جنة من جنات (عدن) الدنيا » .

ولقد كتب عنها هذا الطائف قال : « إن تربة أرضها نهاية فى الخصب ، وسطحها ممرح ، يندر فيه الاستواء ، يحكمها حاكم مسلم مطلق اسمه أبوجعفر ، وهو مستبد ، وبيده وحده مقاليد شئونها كلها ، ولكنه حازم بصير ، عالم برعيته ، متفقد لحقوقها ، بليغ

الفحص عن شئونها . وإن منظر البقعة التى نصبنا خيامنا فيها يشبه مناظر الريف فى انجلترا . . . . .وإن مناظر المروج الخضراء التى كانت تحف بنا من كل جانب ، والربوات المشجرة من خلفنا ، والنهر الجياش من تحتنا ؛ هذه المناظر كلها مجتمعة تجعل من الصعب على أى رائد أوربى الاعتقاد أنه فى قلب القارة المظلمة .

أبو جعفر حاكم شيما

وسكان شيما (چمه أو چيا) مسلمون ، يتزيى رؤساؤهم وذوو الأمر فيهم بزى العرب ، ويتخلقون بأخلاقهم ، ولا ترى الحبشان فيها إلا عابرى سبيل ؛ ولذلك فهى أحسن حالا من الجهات التى يشرف عليها الحبشان من قريب أو بعيد ، وأهلها فى نعم فائضة ، وأمورهم تجدى على محبتهم و يشتغل بعضهم بالزراعة ، ويحترف معظمهم التجارة. يجوبون بتجارتهم الحبشة، من أقصاها إلى أقصاها،ولهم مراكز تجارية صغيرة، منتشرة فى كثير من أنحائها .

والجلاً كثير . يزيد عددهم على عدد الحبشان . ويزعم الدكتور محمد صبرى[١] أن تعدادهم « كان يزيد على العشرة ملايين » — ولا ندرى متى كانوا كذلك — ويرى أنهم أكثر الأجناس الأفريقية بهاء وروعة . . . . . » ولا بدع فالجلوى طويل حسن القامة . له عينان غائرتان ، ولكنهما براقتان ، ويشعان حياة وسحراً . وشفتاه أقل غلظا من شفتى الزنجى . ولونه أقل سمرة من لون الأمهرى[٢] .

جلوية حسناء

والجلوية جميلة ، بهيـة الطلعة ، طلقة المحيـا ، نحاسية اللون . تضفر شعرها كما

---

(١) مصر فى أفريقية الشرقية .

(٢) الجارى ربعة مكتنز العضل ، ذو جبهة مالية عريضة ، ولمحات مهذبة . والجلا أقل ميلا إلى ركوب رؤوسهم من الصـومال والدناكل ، وأشد ذكاء منهما ، ولا بدع إذا زاد نفوذهم ، وعظم شانهم فى الأيام الأخيرة فى القرن الأفريقى الشرقى ، وهم فى اللون مختلفون ؛ إذ يتدرجون من البورانى ، قمحى اللون إلى الولجى المائل إلى السواد .

يضفره بعض بنات الصعيد الأعلى . وهى مولعة بلبس الحلقان ، والعقود ، والأساور المصنوعة من النحاس الأحمر ، أو الأصفر ، أو العاج . وهى زوجة عفة حصان ، يحترمها زوجها و بنوها ، كما أنها متمتعة بحريتها الكاملة ، وهى عذراء . يشاورها أبوها أو أخوها الأكبر فى أمر زواجها . ولا يعقد أمر يخصها إلا بعد استئذانها .

ومن عاداتهم المرعية فى الزواج ، أن الفتى إذا أحب فتاة ، وأحبته ، وبادلته الرضى بالزواج ، أخبر أباه بذلك . فإذا رآها كفء له ، ورأى أن أهلها أكفاء أهله ، ووافقه على الزواج منها ؛ كان حقاً عليه ، أن يوزع الهدايا بين أهله الأقربين ، وأكثر ما تكون هذه الهدايا معزى ، لينال رضاهم بهذا الزواج . وقد يحدث هذا كله ، والعروس طفلة . فإذا ما بلغت الثالث عشرة ، أو الرابع عشرة ، وحاز هذا الزواج قبولها ، يحدد أهلها يوم الزفاف . ويذهب أبوها إلى منازل أقاربه ، وأصدقائه ، الذين أبلغوه رغبتهم فى تقديم هدايا لإبنته — وأغلب ما تكون معزى — ليسمها بنحاره . وترسل الهدايا كلها مع العروس إلى بيت زوجها . وهذا أشبه (بالدوتا) التى يدفعها بعض الأورو بيين لبناتهم . ولهذا كانت خلفة البنات غير محببة إلى فقراء الجلا . فإذا ما بشر أحدهم ببنت ، أربد وجهه وهو كظيم . وكثيراً ما ينبذ فقراء الجلاَّ بناتهم بالعراء ، ليلتقطهن بعض المارة ، أو يلقونهن فى الأنهار ، أو يحملونهن إلى الغابات ، وهناك يتركونهن لتأكلهن الضباع .